

الشيخ محمد العيد التجاني التماسيني وتجديد التصوف
"من الممارسة الروحية السلوكية إلى التصوف العلمي"

Sheikh Mohammed Al-Eid Al-Tidjani Al-Tamassini and the
Renewal of Sufism
"From Behavioral Spiritual Practice to Scientific Mysticism"



أمينة تجاني*

جامعة الوادي

Amina-tedjani@univ-eloued.dz

تاريخ الاستلام: 2025/03/19 تاريخ القبول 2025/05/05 تاريخ النشر 2025/06/03



ملخص:

نحاول في هذه الورقة البحثية تسليط الضوء على أحد أعلام الطريقة التجانية؛ ألا وهو الشيخ محمد العيد التجاني التماسيني، الخليفة الحالي لهاته الطريقة والذي نهج بالتصوف نهجا جديدا لم يعهده الناس من قبل، في محاولة فريدة منه للجمع بين الأصالة والمعاصرة؛ أصالة التراث الصوفي من جهة، ومستجدات العصر ومتغيراته الحضارية التي لا تنتهي من جهة أخرى. وذلك بالخروج بالتجربة الروحية من خصوصيتها الروحية السلوكية، إلى ساحة فكرٍ يُعدُّ لها القوالب لتصبح نهجا علميا عمليا إجرائيا صالحا للتطبيق مهما تغير المكان والزمان.

الكلمات المفتاحية: الشيخ محمد العيد التجاني؛ التصوف، التصوف العلمي وأسسها؛ آليات التصوف العلمي؛ مظاهر التصوف العلمي التجاني.

* المؤلف المراسل

Abstract:

In this paper we try to shed light on one of the well known personalities of the Tidjani Sufi-Tarika; Sheikh Mohammed Al-Eid Al-Tidjani Al-Tamssini, the current successor of this, who has followed a new approach in Sufism that people have never seen before, in a unique and fruitful attempt to combine authenticity and contemporaneity; The authenticity of the Sufi heritage, from one hand, and the endless developments and cultural changes of our era, on the other. By taking the spiritual experience out of its behavioral spiritual specificity, to an intellectual arena with new templates to become a practical, and applicable scientific approach, whatever the space and time change.

key words: Sheikh Mohammed Al-Eid Al-Tidjani Al-Tamssini, Sufism, Scientific sufism and its foundations, Mechanisms of scientific mysticism, Manifestations of Tidjani scientific sufism.

مقدمة:

عرف التصوف حركية نشطة في المغرب الإسلامي، حيث انتشرت الطرق الصوفية والزوايا في كل ربوعه، وكثر عدد الأولياء والصالحين في كل أنحائه حتى قيل: "إن أرض المغرب تنبت الصالحين كما تنبت الكأ¹". وقد كان لهذه الطرق دور كبير في الحفاظ على تماسك المجتمعات من خلال نشر المحبة والتسامح والتعاون...

والجزائر كغيرها من بلدان المغرب الإسلامي عرفت انتشارا واسعا للطرق الصوفية، حيث لعبت هذه الأخيرة أدوارا اجتماعية ودينية وثقافية وتعليمية هامة كان لها الأثر الإيجابي والفعال في المجتمع عبر سيرورتها التاريخية. ومن هذه الطرق الطريقة التجانية؛ الجزائرية المنشأ، والعالمية النفوذ والانتشار، حيث تمكنت -رغم تأخرها في الظهور مقارنة بالطرق الأخرى- من تجاوز الحدود الجغرافية الجزائرية إلى مختلف أنحاء العالم، فانخرط في صفوفها مئات الملايين من مختلف بقاع المعمورة، وأصبح لها زوايا في كل مكان.

وهذا الانتشار الواسع للطريقة التجانية يثير التساؤل حول سر ديمومتها وسيرورتها المتواصلة والتي لا تهدأ ولا تركز، والذي نعزوه إلى شيوخها وأعلامها الذين تولوا خلافتها

منذ نشأتها إلى اليوم، والذين عملوا بجدّ واجتهاد حتى تُواصل الطريقة دورها الاجتماعي والإنساني المنوط بها.

ومن هؤلاء الأعلام الشيخ الدكتور محمد العيد التجاني الذي حمل على عاتقه مسؤولية الطريقة التّجانيّة منذ تولّيه خلافتها سنة 2000، ومن ذلك الحين وهو يعمل جاهدا على إحداث التّغيير الإيجابي والفعال الذي يعود بالنّفع على الفرد والمجتمع، في خطوة جديدة نحو مساهمة التصوّف لروح العصر ومستجدّاته دون تنازل عن موروثه وأصالته، وذلك بالخروج بالتّجربة الروحية من خصوصيتها السلوكية، إلى رحابة العلم لتصبح نهجا إجرائيا يتمثله أهل المراس، ويستقصيه طلاب الحقيقة في عموم أحوالهم.

إشكالية الدراسة:

إن عصر العولمة الذي نعيشه اليوم وما أفرزه من انفتاح ثقافي، وتقدم علمي وتكنولوجي وصناعي، وتدقّق معلوماتي وتواصل رقمي جعل الشّباب لقمة سائغة لوسائله المتنوّعة، يحاكي نماذجها السلوكية ويقلّدها، وينخرط في صفوفها، ما أدّى إلى انسلاخه عن قيمه، وطغيان القيم المادّيّة عليه، مع اختلاط المفاهيم والأفكار.

الأمر الذي يستدعي إعادة النظر في برامج تكوين الفرد المسلم حتى يتمكّن من مواجهة الغزو الثقافي الهدّام الموجّه إلينا، والبحث عن سبل جديدة للتّربية تناسب مستجدّات العصر من جهة، ومن جهة أخرى تساهم في تخريج شباب متفوقين علميا، منتجين عمليا، متخلّقين عباديا، قادرين على النهوض بالأمة الإسلامية، وعاملين على تطويرها وازدهارها باستمرار.

وهذا ما حدا بالشيخ محمد العيد التجاني التماسيني إلى النظر في برامج التكوين والمساهمة في تربية الفرد الجزائري خاصة والمسلم عامة، وذلك باستثمار التصوف باعتباره مدرسة علم النفس السلوكي التي أولت عنايتها بالجانب الروحي للإنسان، وتحيينه حتى يناسب مستجدّات العصر ويؤدي دوره المنوط به. لذلك عمل على

تجديده؛ بنقله من الممارسة الروحية البحتة إلى الممارسة العلمية العملية الروحية؛ من التركيز على الذكر والخلو إلى الانفتاح على العلم وأبحاثه ومستجداته.

ومن هذا المنطلق جاء البحث لتسليط الضوء على هذه الشخصية القيادية في الطريقة التجانية والكشف عن منهجها الصوفي الجديد عسى أن يساهم في إيجاد حلول للمشاكل المعاصرة في العالم الإسلامي، وخاصة بعد ضعف الهمة في طلب العلم، وهيمنة الأفكار الغربية، وسيطرة الرؤية المادية على المجتمع وخاصة الشباب، وغياب القيم السامية والمثل العليا.

وبناء عليه فإن إشكالية البحث تتحدد في التساؤل الرئيس الآتي:

✓ كيف أسهم الشيخ محمد العيد التجاني في تجديد التصوّف الإسلامي وتحويله من الممارسة الروحية إلى الحركة العلمية؟

وما اندرج تحته من تساؤلات فرعية، أهمها:

✓ ما هي الأسس والآليات والأبعاد الفكرية والروحية التي اعتمدها الشيخ للخروج بالتجربة الروحية إلى التصوف العلمي؟

✓ إلى أي مدى يمكن للتصوف العلمي أن يكون مشروعا لإحياء أمة وغودجا يحتذى؟

فرضيات الدراسة:

❖ قام الشيخ محمد العيد التجاني بتجديد التصوف من خلال الجمع بين الممارسات الروحية التقليدية والأسس العلمية، ما أدى إلى ظهور تصوف علمي يعتمد على فهم عميق للنصوص الشرعية والعلوم العقلية.

❖ اعتمد الشيخ على منهجية علمية في إعادة صياغة المفاهيم الصوفية لتتوافق مع متطلبات العصر الحديث مع الحفاظ على الأصالة الروحية للتصوف الإسلامي، ما ساهم في تحويل التصوف من مجرد ممارسات فردية إلى نظام فكري وعلمي.

أهداف الدراسة:

تسعى هذه الدراسة إلى تحقيق الأهداف الآتية:

- ✓ تسليط الضوء على التصوف الجديد الذي اتخذته الشيخ محمد العيد التجاني سبيلا لتربية النشء وتعزيز الأخلاق والقيم لديهم.
 - ✓ الكشف عن مظاهر الجدّة في المنهج الصوفي الذي يعتمد عليه الشيخ.
 - ✓ إبراز أثر التصوف العلمي للشيخ محمد العيد التجاني في ترقية الفرد والمجتمع.
 - ✓ توضيح سبل تفعيل التصوف العلمي للشيخ في الحياة العصرية.
- إجراءات الدراسة:

اعتمد البحث في جميع جزئياته على المنهج الوصفي مع اعتماد آلية التحليل، وذلك وفق المباحث الآتية: أولا: الشيخ محمد العيد التجاني. ثانيا: التصوف، ثالثا: التصوف العلمي وأسس. رابعا: آليات التصوف العلمي. خامسا: مظاهر التصوف العلمي التجاني.

المبحث الأول: الشيخ محمد العيد التجاني

يتناول هذا المبحث التعريف بالشيخ محمد العيد التجاني؛ نسبه ومولده، تعليمه ودراسته، أعماله وسلوكه الصوفي، والتي كان لها أثرا كبيرا في بلورة أفكاره الصوفية.

المطلب الأول: نسبه ومولده

هو الشيخ محمد العيد التجاني التماسيني بن الخليفة الشيخ محمد البشير الثاني بن الخليفة الشيخ محمد العيد الثاني بن الخليفة الشيخ محمد البشير الأول بن الخليفة الشيخ محمد حمه بن الخليفة الشيخ محمد العيد الأول نجل الإمام التماسيني؛ الشيخ الحاج علي بن الحاج عيسى الخليفة الأول للشيخ أحمد التجاني مؤسس الطريقة التجانيّة. ولد يوم الجمعة 04 رمضان 1373 هـ الموافق لـ 07 ماي 1954م بتماسين، ولاية تڤرت، الجزائر².

المطلب الثاني: تكوينه العلمي ومساره العملي³

حفظ الشيخ محمد العيد التجاني القرآن الكريم على أئمة الزاوية التجانية بتماسين منذ صغره، كما تعلّم العلوم الشرعية على يد أبيه الخليفة الشيخ محمد البشير التّجّاني. بدأت علامات التّجّابة تظهر عليه منذ الصغر، حيث درس الابتدائي ببلدته تماسين، ثم واصل تعليمه الإكمالي بولاية تڨرت، أمّا الثّانوي درسه على مرحلتين؛ السنة الأولى والثّانية بثانويّة تڨرت التي كانت هي الوحيدة في الجنوب الشرقي الجزائري آنذاك. وأمّا السنة الثالثة ثانوي فدرسها بقسنطينة، وذلك لاختياره شعبة الرياضيات والتي لم تكن موجودة بثانوية تڨرت في ذلك الحين. فتحصّل على شهادة البكالوريا سنة 1974. ثم أكمل دراسته الجامعيّة بجامعة قسنطينة (منتوري حاليا) شعبة علوم دقيقة، فتحصّل على شهادة التعليم العالي في الفيزياء والمواد الصلبة (DES) سنة 1978، ثم شهادة الماجستير في التخصّص نفسه من الجامعة نفسها سنة 1981، ثم شهادة الدكتوراه من جامعة باريس 11 مركز أورساي (Paris11 Centre Orsay) بفرنسا سنة 1993. تقلّد الشيخ محمد العيد التّجّاني عدّة مناصب بجامعة قسنطينة إلى جانب التّعليم والتّأطير البيداغوجي؛ إذ بدأ مشواره المهني كمساعد في التدريس في مادة الفيزياء في جامعة قسنطينة سنة 1979، ثم مدرّسا للفيزياء في الكلية العسكرية لتكوين المهندسين والتقنيين (Ecole Supérieure ANTIA) بالبرج البحري بالجزائر العاصمة أثناء أداء واجبه تجاه الخدمة الوطنية.

ثمّ رجع للتدريس بجامعة قسنطينة كأستاذ ثم مدير للكلية، ثم ترك مجال التدريس والتّأطير والإدارة بالجامعة ليتفرّغ للزاوية، فاستقال من منصبه سنة 2000.

المطلب الثالث: طريقه الصوفي

تقلّد الشيخ محمد العيد التجاني التماسيني خلافة الطّريقة التّجّانيّة خلّقًا لوالده الشيخ محمد البشير التجاني سنة 2000، فقام بدور الشيخ المرّي للمريدين من جهة، ومن جهة أخرى عمل على تحيين وتجديد الزاوية التجانية بتماسين حتى تكون مواكبة لهذا العصر

بكل مستجداته وتغييراته. ولكنّ دوره الرّوحي لم يمنعه من مواصلة البحث العلمي، فواصل مسيرته العلميّة ومشاريعه البحثيّة ليتحصّل على مرتبة الأستاذيّة (بروفيسور) وهو خليفة للطريقة التّجانيّة، ليؤكد بأنّ الشيخ المرّي لا ينحصر عمله في الجانب الرّوحي فقط، بل يتعدّى ذلك إلى الجانب العلمي لأنّ العلم أساس تطور المجتمعات.

فقد شارك -وهو شيخ للطريقة التّجانية- في العديد من الملتقيات والندوات العلميّة الوطنيّة والعالميّة، كما نظّم الكثير من الملتقيات بالزاوية التّجانية بتماسين وقمار وبالتّسيق مع بعض الجامعات؛ جامعة الوادي وجامعة ورقلة وغيرها، ليؤكد بأنّ الشيخ المرّي لا بدّ وأنّ يجمع بين الجانب العلمي والجانب الرّوحي، والجانب العملي في آن واحد حتى يؤدّي دوره على أكمل وجه، وتؤتي تربيته أكلها في كل حين.

المبحث الثاني: التصوف

المطلب الأول: التصوف لغة

تعددت الأقوال في أصل لفظة التصوّف واشتقاقاتها؛ إذ نجد من يرى بأنّها نسبة إلى الصّفاء، لأنّ الصّوفي هو الذي صفت سريره ممّا يشوّها، يقول (الكلاباذي): "إنما سمّيت الصّوفيّة صوفية لصفاء أسرارها ونقاء أثارها"⁴. غير أنّ (القشيري) يرى أنّ "اشتقاق الصّوفي من الصّفاء، بعيد في مقتضى اللغة فأصل الاشتقاق من الصّفاء هو صافي وليس صوفي"⁵. ويرى آخرون أنّها مشتقة من الصّف لأنّ الصّوفية بتوجّههم إلى الله تعالى استحقّوا أن يكونوا في الصّف الأوّل من صفوف المؤمنين. ولكن (القشيري) يرى أنّ "المعنى صحيح ولكن اللغة لا تقتضي هذه النسبة إلى الصّف لأنّ أصل الاشتقاق صوّي وليس صوفي"⁶.

وآخرون ينسبونها إلى أهل الصّفة، وذلك للتّشابه الكبير بينهما؛ ولكن هذا الاشتقاق أيضا غير صحيح في اللغة، فالأصل صوّي وليس صوفي. وقيل إنّها مشتقة من الكلمة

الإغريقية (صوفيا) والتي تعني (الحكمة)، ولكن تعني الحكمة في مجال الطب، وليست الحكمة الروحية، ولذلك فلا توجد علاقة بين الكلمتين.

وقيل أيضا إنها مشتقة من الصّوف، فكلمة تَصَوُّف مصدر للفعل تَصَوَّفَ للدلالة على لبس الصوف. وهذا الاشتقاق هو الأقرب، ودليل ذلك من الناحية اللغوية صحة ردّ (صوفي) إلى (صوف).

ويمكن القول إنّ لبس الصّوف كان هو الغالب على المتقدمين من الصوفيّة فأطلق عليهم الناس اسم (الصوفيّة)، وفي ذلك يقول (الكلاباذي): "ومن لبسهم وزيّهم سمّو الصّوفية"⁷. ثم أصبحت هذه التسمية تطلق على كل من تبعهم، ثم انتقلت دلالة التسمية لتشمل كلّ من يسير على نهج الصوفيّة وطريقهم إلى أن أصبح طريقهم يعرف بالتصوّف.

المطلب الثاني: التصوف اصطلاحا

تعددت أقوال العارفين بالله في تعريف التصوّف، من ذلك: قول أبي علي الروذباري: "من كانت الدّنيا منه على القفا، وسلك منهاج المصطفى. وقول الجنيد: تصفية القلب عن موافقة البريّة، ومفارقة الأخلاق الطّبيعيّة، وإخماد الصّفات البشريّة، ومجانبة الدّعاوي النّفسانيّة، ومنازلة الصّفات الرّوحانيّة، والنّصح لجميع الأُمّة، والوفاء لله على الحقيقة، واتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم في الشّريعة"⁸. وقول ابن عربي: "التخلق بأخلاق الله تعالى هو التصوّف"⁹. وقول الشيخ أحمد التجاني: "امتثال الأمر واجتناب التّهي في الظّاهر والباطن من حيث يرضى لا من حيث ترضى"¹⁰.

إنّ التصوّف عقيدة وإيمان، علم وعمل، أدب ومحبة، عبادة ومجاهدة، تطبيق عملي وممارسة حقيقيّة للشّريعة الإسلاميّة في الحياة اليوميّة، منهج للحياة الرّبّانية التي أرادها الله لعباده؛ يوازن بين متطلّبات الجسم والروح على حدّ سواء، بل يتجاوز المادة إلى الروح والدنيا إلى الآخرة، ويرتفع بالإنسان المخلوق إلى معرفة خالقه، ومحبته وإيثاره عمّن سواه

عن طريق تركية النفس ومجاهدتها حتى تنتصر على شهواتها الظاهرة والباطنة، يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (العنكبوت، 69).

المبحث الثالث: التصوف العلمي وأساسه

إنّ تجديد الشيخ محمد العيد التجاني للتصوّف بالانتقال به من الممارسة الروحية السلوكية إلى الممارسة العلمية العملية الروحية، يمكننا أن نطلق عليه "التصوف العلمي"، وهو مصطلح لا وجود له - فيما نعلم - عند غيره، وإن كانت فكرة التصوف العلمي مستمدة من التراث الصوفي ومن تركات أعلامه، والمخزون شاهد على جهودهم، فإن عنوان "التصوف العلمي" يشبه أن يكون حكراً على المدرسة التجانية.

المطلب الأول: المنهج الصوفي

التصوف في الحقيقة هو منهج عبادة وطريق يتبع لنيل رضى الله تعالى في الدنيا والآخرة، وعليه فالمنهج حسب الألوسي: "المنهاج: الطريق الواضح في الدين، والمنهاج: الطريق المستقيم"¹¹. فالمنهاج الطريق البين الواضح، ويستعمل في كل شيء كان بيناً واضحاً سهلاً. ويقول الراغب الأصفهاني: النهج: الطريق الواضح، ومنهج الطريق ومنهاجه¹²، وقد قال تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ (المائدة، 48). فمعنى الكلام لكل قوم منكم جعلنا طريقاً إلى الحق يؤمّه، وسبيلاً واضحاً يعمل به.

فالمنهج والمنهاج هو الطريق والسبيل الذي يتبعه الإنسان للوصول إلى مرضاة الله - عز وجل -، والمنهج الصوفي هو الطريق أو الطريقة الصوفية المتبعة لبلوغ مقصد معين. والمنهج الصوفي العلمي هو تصوّر تطبيقي عملي للحياة الروحية يسعى إلى الربط بين الحقيقة والشرعية من جهة، والعلوم العقلية من جهة أخرى في سبيل التقرب إلى الله تعالى، وزيادة الإقبال على عبادته، لقوله - عز وجل -: ﴿وما خلقت الجنّ والإنس إلا ليعبدون﴾ (الذاريات، 56).

المطلب الثاني: أسس التصوف العلمي

إنّ التصوف العلمي هو الطريق المتبع لتربية الخلق وتزكية نفوسهم؛ فكرياً وروحياً وأخلاقياً وإنسانياً، والذي وضعه الشيخ أحمد التجاني¹³ للسير بالإنسان في طريق الكمال، والذي نستشف أسسه من قوله: "التصوّف امتثال الأوامر واجتناب التّواهي في الظاهر والباطن من حيث يرضى لا من حيث ترضى"¹⁴. ومن قول خليفته الشيخ الحاج علي التماسيني: "اللويحة والمسيحة والسيحة حتى تخرج الرويحة"؛ فالأولى ترمز للعلم، والثانية ترمز للعمل، والثالثة ترمز للعبادة. وعليه فإن أسس التصوف العلمي هي كالآتي:

الفرع الأول: العلم (امتثال الأمر واجتناب التّهي)

وبعني العلم بالشريعة، فطلب العلوم الشرعية ضروري في الطريقة التجانية لمن أراد أن يترقى في مدارج السالكين، "فعلى قدر الشرب من العلوم الشرعية يكون الشرب من الحوض"¹⁵.

الفرع الثاني: العمل (في الظاهر والباطن)

والمقصود به العمل بالشريعة في الظاهر والباطن في كل قول وعمل وخاطر؛ فأما الظاهر: فباتباع الأوامر المتعلقة بالظاهر كالصلاة والصيام والزكاة والحج، والصدقات وغيرها... واجتناب التّواهي المتعلقة بالظاهر كالسرقة والقتل والزنا والغيبة... وأما الباطن: فباتباع الأوامر المتعلقة بالباطن كالصدق والإخلاص والتقوى والتواضع والمحبة وغيرها، والمشار إليها بالقول:

ويحفظ المفروض رأس المال والنقل ربحه به يوال

خوف شكر رجا صبر توبة زهد توكل رضى محبة¹⁶

واجتناب التّواهي المتعلقة بالباطن، كالكبر والعجب والحسد والبغض والحقد والكره وغيرها، والمشار إليها بالقول:

يغض عينه عن المحارم يكف سمعه عن المآثم

يطهر القلب من الرّياء وحسد وعجب وكل داء¹⁷

وهذا ما "يجعل الإنسان يقترب من الكمال المنشود الذي لا يتحقق إلا ببلوغ الكمال في الشريعة"¹⁸. وبذلك تتحقق القيم في السلوك وتظهر في اختيار الأحسن في الأخلاق، والأجود في المعاملات، والأفضل في أنماط العلاقات.

الفرع الثالث: العبادة (من حيث يرضى لا من حيث ترضى)

وحقيقتها "إرضاء الله تعالى على الدوام ومخالفة هوى النفس في كل فعل وقول وخاطر، وذلك بتغليب رضى الله عن رضى النفس، فالمريدُ طريقَ الله إذا أُسيءَ إليه حُلْم، وإذا جُهلَ عليه عفا وغفر، وإذا أذنب تاب واستغفر، وإذا إبتُلِيَ صبر، وإذا أُعْطِيَ شكر... وهذا هو قطب الرّحى في التّصوّف عامّة والطّريقة التّجانيّة خاصّة؛ السّمو بالإنسان للتّصاف بالأخلاق الإلهيّة كالصبر والرّضا والحمد والشّكر والعفو والإحسان وغيرها من الأخلاق التي يحبّها تعالى"¹⁹، لقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيَحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (البقرة، 222). وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (التوبة، 4) وغير ذلك من الآيات.

إذا أسس التصوف العلمي التي يعتمدها الشيخ محمد العيد التجاني هي: العلم والعمل والعبادة. وما يؤكد ذلك قوله في أحد خطابه: "إننا نعتزّ بهذه الطّريقة العظيمة التي تدعو إلى: العلم أولاً والذي لا سعادة للبشريّة بدونه، فمن أراد الدّنيا فعليه بالعلم، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم، ومن أرادهما معاً فعليه بالعلم. ويكفي أمة سيّدنا محمد صلى الله عليه وسلم؛ أمة الرّسالة الخالدة الخاتمة أن كان في أوّل اتّصال بها في غار حراء ذلك الفعل الثّلاثي ﴿اقرأ﴾ ينير دروب البشر ويهدي الحيارى سُبُل الرّشاد. والعمل ثانياً والذي يحفظ للفرد كرامته، ويُعَلِّي هامته، ويجعله عنصراً مفيداً في المجتمع، وخير النَّاس أنفعهم للنّاس. والعبادة ثالِثاً لأنّ فيها ارتباط العباد بخالقهم، وما أعظم أن يستجيب العبد لمولاه طاعةً وانبياذاً، حمداً وشكراً لله"²⁰.

المبحث الرابع: آليات التصوف العلمي

اعتمد الشيخ محمد العيد التجاني في منهجه الصوفي العلمي أسسا ثلاثا؛ "علم وعمل وعبادة" كانطلاقة أساسية لمشروعه النهضوي لإحياء الأمة وتكوين شبابها والأخذ بأيديهم حتى يستلموا المشعل ويساهموا في تطوير بلدانهم وتقدم مجتمعاتهم، وذلك لكون:

✓ العلم هو المركز الأساسي لنهضة الأمة، والوسيلة التي يستعان بها على عمارة الأرض وتسخير ما فيها، وترقية الحياة، والانتفاع بالطيبات من الرزق.

✓ العمل هو المركز الأساسي للتنمية بكل أبعادها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية والروحية والمادية والحضارية بما يخدم المجتمع والدولة؛ البلاد والعباد.

✓ العبادة هي المركز الأساسي لتفعيل القيم الروحية والأخلاق الحميدة في كل مجالات الحياة، وأن تكون هي الأساس لتربية الأجيال.

وعليه فآليات التصوف العلمي هي:

المطلب الأول: العلم

تفرد الشيخ محمد العيد التجاني دون غيره من الصوفية في دعوته إلى العلمية وتبنيها في منهجه العرفاني التجاني باعتباره أول أمر للمسلمين لقوله تعالى: ﴿اقرأ﴾. فالعلم عبادة وبه يكون التوجه إلى الله أيضا، وهنا خرج من الممارسة الروحية السلوكية المقتصرة على تلاوة الأذكار والأوراد والأحزاب، إلى العلمية بما تتضمنه من علوم دينية ومدنية.

الفرع الأول: العلوم الشرعية

دعا الشيخ محمد العيد التجاني كغيره من الصوفية إلى الاهتمام بالقرآن الكريم والسنة المطهرة، حيث كان هذا مشروعه الأول منذ توليه خلافة الطريقة التجانية، وذلك لربط المريدين وخاصة الشباب بدينهم وسنة نبيهم، وحمايتهم من عصر العولمة وما أفرزه من مستجدات خطيرة على الهوية الإسلامية. وفي ذلك يقول:

"كما أنّ أسس النّجاح في عصرنا هو أن نتمكّن من تحصين أنفسنا من تيّارات الشرّ التي تهبّ علينا وتتربّص بنا وبحضارتنا وأصالتنا وقيّمنا، ولا حصن لنا إلّا بين أحضان ديننا الحنيف وطريقتنا السّمحاء وثوابت وطننا العزيز"²¹.

1- القرآن الكريم:

أولى الشيخ محمد العيد التجاني القرآن الكريم عناية كبيرة؛ حفظا ومدرسة، ترتيلا وتلاوة، لأنّ القرآن الكريم هو دستور الأمة الإسلامية، المعلّم والمرشد إلى أقوم سبيل، منهج الحياة وحبل النجاة في الدنيا والآخرة. وحثّ المريدين على حفظه ومدرسته؛ أطفالا وشبابا، كهولا وشيوخا، وفي ذلك يقول:

"إنّني أجدّد الدّعوة إلى الاهتمام بالقرآن الكريم وتعليمه للنّاشئة، والمحافظة عليه، لأنّنا أمناء عليه، وما اجتمع قوم على أكرم منه، فهو نور ورحمة وحصين وتربية وأخلاق"²².

2- السنة المطهرة:

توأمان لا يفترقان أبد الدهر؛ القرآن الكريم والسنة النبويّة الشريفة، وهذا ما نجده في خطابات الشيخ محمد العيد التجاني؛ إذ يحثّ عليهما دائما ويؤكد على ضرورة التمسك بهما لأنّهما أساس النّجاح. إذ يقول: "أحبابنا الأكارم، إنّا ننتمي إلى مدرسة عظيمة، تطلب من مُريديها أن يكونوا في القمّة، ويتطلّعوا إلى العلياء، ولا يكون ذلك إلّا بأساس متين قوامه العلم، وأصلّ هذا الأخير وُثْبُهُ القرآن الكريم والسنة النبويّة المطهرة، أدّبوا النّاشئة وربّوهم على ذلك، فهذه أولى الخطوات في درب النّجاح"²³.

فالحديث النبوي الشريف وسيرة الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم تبين لنا أخلاقه ومعاملاته وأقواله وأفعاله لتتعلّم منها ونقتدي بها، لنحافظ على أنفسنا وعلى أبنائنا ممّا يتربّص بنا وبهم من شرور. وفي ذلك يقول الشيخ: "لابدّ من نشر للسيرة العطرة، وترسيخها لها بين الأجيال، لربط النّشء بسيد الوجود صلى الله عليه وسلم، وحصين أبنائنا ضدّ الآفات الاجتماعية والتّيّارات الهدّامة، وما تعظيمنا لهذا الشّهر المبارك

-شهر ربيع الأول- إلا تعبيراً عن وفائنا لسيّد الكائنات وخاتم الأنبياء والمرسلين، مُنقِذُ البشرية ومُخْرِجُهَا مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ"24.

الفرع الثاني: العلوم العقلية

وهذا ما تميّز به الشيخ محمد العيد التجاني؛ إذ نحا بالتصوّف نحواً جديداً، ونَقَلَهُ نَقْلَةً نوعيّة من الممارسة الروحيّة فقط إلى الممارسة العلميّة العمليّة الروحيّة، حيث مزج بين العلوم الشرعية والعلوم العقلية، ليحظى المنتمون للمدرسة التجانيّة -في مسارهم التكويني- بالمعرفة بشقيّها المذكورين، وبذلك أخرج الزاوية التجانيّة عن المألوف الصوفي؛ الاستغراق الروحي، إلى رحاب العلم والمعرفة، وبذلك جمع بين الروحانية والعلمية. وأصبحت الزاوية مكاناً روحياً للعبادة وأداء الصلوات، وتلاوة القرآن والأذكار والأوراد والأحزاب، وفي الوقت نفسه مركزاً علمياً للدراسات والأبحاث العلمية، وإقامة الملتقيات والندوات والأيام الدراسيّة...

وهذا يمثّل مشروعه الثاني؛ غرس حب العلم في المريدين عامة والشباب خاصة، ولتحقيق ذلك سلّك الشيخ محمد العيد التجاني سُبُلًا وآليات عديدة، أهمّها:

1- التكوين العلمي المتخصّص:

دعا الشيخ محمد العيد التجاني الشباب إلى التّنوّع في طلب العلم، وعدم الاقتصار على تخصّص واحد، لأنّ وطننا الجزائر بحاجة إلى كلّ التخصصات؛ العلوم الإنسانية والعلوم التجريبيّة والتّقنيّة من أجل تطويره والرّقي به إلى مصاف الدّول المتقدّمة. وفي ذلك يقول: "إنّ مقتضيات العصر تفرض علينا - خاصة الشباب - التفتّح على كافة العلوم وجميع الاختصاصات لإحداث التكامل خدمة للمجتمع الإنساني، وذلك بالإخلاص في أعمالنا والتعاطف فيما بيننا، لتجتمع خيريّة كلّ منّا فتكون دعماً وعوناً وبركة لهذا الوطن والقائمين على أمره"25.

ويقول أيضا: "أيّها الأحباب، إنّنا ننتمي إلى أمة تأمر بالعلم وتحضّ عليه، وفي عصر لا مكان فيه لمن لا يبتغي العلم أو يدعو إليه، لا بدّ من مساهمة ركب العولمة، ويكون ذلك بالتكوين المتخصّص في شتى المجالات، المبني على قواعد علميّة، تدخل في ذلك التّقنيات الحديثة للتنمية البشريّة والتّدريب وتطوير مهارات الذات، والعمل وفق منظور استراتيجي محدّد الأهداف"²⁶.

2- التحصيل العلمي والتفوق فيه:

حثّ الشيخ محمد العيد التجاني الشباب عامة والمريدين خاصة على التحصيل العلمي وحصد الشهادات العليا والتفوق والتميز في الدراسة، لأنّه بالعلم تُبنى الحضارات وتزدهر البلدان وترتقي المجتمعات، والشباب هم المؤهلين لذلك والمعول عليهم في الرقي والتّطوير. ولذلك ركّز في كلّ خطابه ولقاءاته وأعماله على مشروعه العلمي، ونورد هنا بعض المقتطفات من خطابه للشباب في الزيارة الرّوحية التي تؤكّد على ذلك، حيث يقول:

"إننا ندعو شبابنا لبذل مزيد من الجهد في التحصيل الدراسي ليكونوا دائما في الطليعة، نطلب منهم الشهادات العليا التي ترصّع جدران زوايانا، وترسم البهجة في قلوبنا، نفتخر بإنجازاتهم الشخصية والاجتماعية، نراهم أهلا لتحمل المسؤوليات، وتحقيق الغايات"²⁷.

3- تعلم اللغات الأجنبية:

دعا الشيخ محمد العيد التجاني المريدين أيضا إلى تعلّم اللغات الأجنبية حتى يواكب الشباب العصر ويستفيدوا من علومه وأبحاثه واختراعاته، حيث يقول:

"إنّ مستقبل أبنائنا مع العلم، ومن أهمّ روافده وأدواته تعلّم اللغات الأجنبية التي تفتح أبواب التفوق والنجاح، فعلى أبنائنا مضاعفة الجهد في هذا السياق"²⁸.

4- عقد الملتقيات والندوات العلمية:

أقام الشيخ محمد العيد التجاني مجموعة من الملتقيات والندوات العلمية بالزاوية التجانية بتماسين حتى أنها أصبحت منبرا للعلم ومركزا للبحث العلمي، وما يميّز أغلب هذه اللقاءات العلمية تزامنها مع مناسبة الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، وذلك لجعل هاته المناسبة الروحية سبيلا للعلم والمعرفة، لأنّ ديننا دين علم وبحث وتفكر وتدبر. فأراد أن تكون هاته المحطة الإيمانية ملتقى لرفي العقل؛ علما وفكرا، ورفي الروح؛ محبة وعشقا، فتشمر عمل الجسد؛ سلوكا وخلقا.

ومن عناوين الندوات العلمية التي أقيمت بمناسبة المولد النبوي الشريف، نذكر: "التصوّف المغاربي والمشكلات الإنسانية الزاهنة" والتي كانت بالتنسيق مع جامع الزيتونة بتونس، "تجربة الكتابة وكتابة التجربة"، "الاستشراق والتصوّف"، "الأخلاق المحمدية ومرجعية الخطاب الصوفي"، "التصوّف ودوره في السياقات الثقافية الحديثة"، وغيرها كثير.

5- الجامعة الصيفية:

أقام الشيخ محمد العيد التجاني جامعة صيفية للشباب لتكوينهم وتوعيتهم وترقية فكرهم، وفي ذلك يقول: "الجامعة الصيفية اليوم هي محطة من محطات توحيد الفكر والرأي، فهي مدرسة تنويرية للشباب لأنهم عمدة الغد وعليهم الاعتماد، وهي تعمل على تعبيد الطريق لهم واختصار المسافات حتى ينطلقوا في مشاريعهم في وقتهم، مواصلين المسيرة للرسالة المحمدية التي انطلقت منذ بداية البشرية، فهم أحقّ بها ويجب أن يكونوا فيها روادا وقادة"²⁹.

6- إنشاء أكاديمية علمية:

عمل الشيخ على إنشاء أكاديمية علمية لتكوين الشباب وتنمية قدراتهم الفكرية وأدائهم مهارية وتشجيع مواهبهم الإبداعية إلى جانب تهذيب نفوسهم وترقيتها أخلاقيا وروحيا، ليكوّن جيلا عالمًا عاملاً عابداً. وأطلق على هذه الأكاديمية تسمية "أكاديمية سرّ للتأهيل القيادي"، وذلك امتثالا لقول الشيخ أحمد التجاني: "يسير زمانك سرّ".

بمعنى أن يكون المريد التجاني مسائرا للعصر بكلّ تحولاته ومستجدّاته، ومفيدا لمجتمعه ووطنه وأقّمته والإنسانيّة جمعاء، وذلك بمشاركته في إيجاد حلول للقضايا الكبرى في عصره. وفي هذا الصدد يقول: "إنّ مستقبل أبنائنا مع العلم، ومن أهمّ روافده وأدواته تعلّم اللغات الأجنبية التي تفتح أبواب التفوق والنجاح، فعلى أبنائنا مضاعفة الجهد في هذا السياق، ولذلك جاءت فكرة إنشاء أكاديمية علمية تثقيفية لترافق أبنائنا وتأخذ بأيديهم ليكونوا روادا للخير في مجتمعهم ووطنهم"³⁰.

7- إنشاء النوادي العلمية:

اهتمّ الشيخ محمد العيد التجاني بكل العلوم، وعمل على فتح نوادٍ علمية في كل التخصصات من أجل تشجيع الطلبة على التحصيل العلمي، وتحفيزهم على البحث والتفكير والإنتاج، والتعاون مع بعضهم البعض من أجل خدمة المجتمع والوطن والدين الإسلامي والبشرية جمعاء... لأنّ مقتضيات العصر تفرض على الشباب التفتح على كافة العلوم وجميع الاختصاصات لإحداث التكامل خدمة للمجتمع الإنساني.

8- تشجيع التأليف والإنتاج العلمي:

شجّع الشيخ الشّباب على الكتابة والتأليف العلمي، وذلك بطبع كتبهم على نفقة زاويته بتماسين، وهذا ما أدّى إلى زخم معرفي كشفت عنه كثرة المؤلفات المطبوعة. إضافة إلى الكتب تعدّدت المجالات التي طبعت على هامش الأيام الدراسية والندوات العلميّة، وفعاليّات الجامعة الصيفية، ناهيك عن الرّسائل الجامعية الكثيرة التي اعتنت بدراسة الطريقة التجانية؛ تاريخا ومسيرة، معمارا وعمارة، تربية وتعلّما.

المطلب الثاني: العمل

اهتمّ الشيخ محمد العيد التجاني بالعمل، لأنّ الدّين ليس عبادة فحسب، بل العلم عبادة والعمل عبادة أيضا، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اليد العليا خير من اليد السفلى". ولقوله أيضا: "إذا قامت السّاعة وفي يد أحدكم فسيلة فليغرسها".

ومن خطاباتاته التي تحثّ على العمل نقتطف هذا الجزء الذي يقول فيه: "إنّ للعمل قيمة عظيمة في الإسلام، ولا تقوم حياة الإنسان إلا به، فالمؤمن لا يُرى إلا ساعياً، ولنا في شيخنا سيدي الحاج علي التماسيني القدوة والأسوة فهو الدّاعي إلى العمل بالحال والمقال وهاتاه الزاوية نتاجه وأثره المبارك، فالعامل المجتهد يتعدّى نفعه وأثره إلى المجتمع ومنه إلى الأمة جمعاء، وبلادنا اليوم أحوج ما تحتاجه إلى سواعد مجدّة نهضتها، ولنكن بناة لصرحها، ورؤّادا في دعم مسيرتها التنموية لتحقيق التقدم والرّقي"³¹.

وكثيرا ما يدعو إلى العمل الجماعي الذي يحقّق التعاون ووحدة الصّف الذي أمرنا به ديننا الحنيف، وفي ذلك يقول: "...العمل الفردي غالبا ما يؤدي إلى المادّيات وأما العمل الجماعي فيعمّق فينا الروحانيات ويحدث الألفة والترابط الاجتماعيين"³².

ولم يكن الشيخ محمد العيد التجاني من أرباب القول فقط، بل من أرباب العمل، وتمثّل ذلك فيما قدّمه من نماذج عمليّة حيّة أشرف عليها بنفسه؛ إذ لم يكتف بتوجيه المريدين للعمل وإتقانه، وإتّما طَبِّقه أولا حتى يكون قدوة يحتذى به، ومن أعماله:

الفرع الأول: مشروع زراعة النخيل

يقوم الشيخ محمد العيد التجاني بغراسة عشرة آلاف نخلة كلّ عام، وذلك استكمالا لمشروع جدّه الشيخ الحاج علي التماسيني³³ مؤسس زاوية تماسين الذي حوّل منطقة تملّحت الشديدة الملوحة والصعبة الاستصلاح إلى واحات غنّاء. ومشروع خلفائه أيضا الذين أتوا من بعده؛ الذين استثمروا في غرس النخيل والإكثار من واحاته من أجل تنمية المنطقة وازدهارها، والمساهمة في بناء اقتصاد الوطن من خلال انتعاش الزراعة، وتوفير مناصب عمل لأهل تماسين، وتحقيق الاكتفاء الذاتي. بالإضافة إلى ذلك قام الشيخ محمد العيد التجاني بزرع الحبوب وخاصة القمح، وتربية الأبقار وغيرها.

وهذا ما جعل الزاوية التجانية بتماسين في غيى عن الغير، بل أكثر من ذلك حيث كانت السبّاقة دائما إلى مساعدة الفقراء والمحتاجين منذ تأسيسها إلى اليوم، ما يدلّ على أهميّة العمل في المنهج الصوفي العلمي لأنّه سبيل التنمية والازدهار.

الفرع الثاني: مشروع تحلية المياه

بالإضافة إلى اهتمام الشيخ محمد العيد التجاني بالفلاحة ركّز على البيئة أيضا، وذلك بمعالجة ما قد يسبّب تلوثها لحماية الفرد والمجتمع، فقدّم مشروع تحلية المياه لبلدية تماسين، وهو مشروع يهدف إلى تحلية مياه الصّرف من أجل الاستفادة منه في سقي المزروعات، وقد نُقِدَ المشروع بموادّ محلّية بسيطة وبتكلفة غير باهظة، واستفادت منه المنطقة بالتّقليل من مشكل نقص المياه والتخلّص من الماء الملوّث.

الفرع الثالث: مشروع الصناعات التقليدية

كانت المرأة ضمن اهتمامات الشيخ محمد العيد التّجاني وخاصة الماكثة بالبيت، باعتبارها شريكا للرّجل في تدوير عجلة الحياة، ولهذا أنشأ ورشة للصناعات التقليدية بزاوية تماسين لعبت فيها المرأة دورا مهما، وخاصة صناعة النسيج التي احتلت مكانة مرموقة فيها، فأبدعت أناملها في الخياطة والطرز، وتفنّنت في إظهار بصمتها على الملابس المحلية. وبذلك فتح الشيخ فضاءً واسعا لإبداع المرأة من أجل تحسين مستواها المعيشي، وللمساهمة في تنمية الوطن.

الفرع الرابع: مشروع البناء والتّعمير

مجال آخر لم يغفل عنه الشيخ محمد العيد التجاني؛ العمران، فهو ضمن أولويّاته وخاصة بناء الرّوايا في كلّ ربوع الجزائر الحبيبة، وما يميّز عمل الشيخ هنا تركيزه على البناء وفق التّمط الحديث، حيث أصبحت الزاوية تبنى على شكل مركز ثقافي متعدّد القاعات، وذلك حتى يكون مكانا مناسباً لترقية الجانب العلمي والمعرفي. ويستجيب لمتطلبات الحاضر من قاعة للاستقبال وأخرى للمكتبة، وثالثة للمحاضرات ورابعة للإعلام الآلي،

وخامسة لتدريس القرآن، وسادسة لتعليم الأطفال (الروضة)، وسابعة لتلاوة الأذكار والأوراد، وأخر للمبيت وهكذا.

المطلب الثالث: العبادة

الفرع الأول: أداء الصلاة جماعة وتعمير بيوت الله

إن تعلق القلب بالله تعالى وإخلاص العبادة له، وإعمار بيوت الله من أوكّد الواجبات على المسلم، ولذا دعا الشيخ محمد العيد التجاني المريدين عامة والشباب خاصة إلى ذلك، بقوله: أتوجّه للأحباب بأن يعملوا من أجل مساندة الأبناء على تحقيق هاته التوجيهات والانسجام مع مقدّمي الطريقة الممثّلين للشيخ الذين أضع كلّ ثقتي فيهم طالبا منهم مضاعفة الجهد في تنفيذ مبادئ الطريقة رُفْعاً لراية القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وإعماراً لبيوت الله، وأمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر، وإصلاحاً لذات البين، وتوحيد الصفوف...³⁴

الفرع الثاني: الذكر

أكّد الشيخ محمد العيد التجاني على الوُرد التجاني، وحثّ الشّباب على أخذه والعمل به، وهو: الورد المعلوم³⁵ الذي يمثّل أوّل أركان الطريقة، ثمّ ورد الوظيفة³⁶ وهو ثاني أركان الطريقة، ثمّ ورد الهيللة³⁷ وهو ثالث الأركان. لأنّ ذكر الله تعالى هو السبيل الأسير للتقرّب إلى الله تعالى، والطريق الأمثل لاجتياز مقامات الدّين؛ مقام الإسلام علماً، ومقام الإيمان عملاً وصولاً إلى مقام الإحسان محبةً وعشقا. فيكونوا من السابقين الذين قال فيهم تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (12) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (13) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (14) ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (15) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ (16)﴾ (الواقعة، 12، 13، 14، 15).

الفرع الثالث: المحبة:

أهم ما يميّز التّصوّف عامة والتصوف العلمي التجاني خاصّة المحبة؛ حبّ الله وحبّ رسوله صلى الله عليه وسلم، وحب المسلمين عامة لأنهم إخوة في الدّين، فالحبّة كما يقول

الشيخ محمد العيد التجاني: هي "رباط القلوب وصفاء النفوس وتحقيق الغايات النبيلة وتوحيد الأهداف من أجل علو الرتبة والتحلي بالفضائل الإنسانية طاعة لله تعالى ورسوله المجتبي صلى الله عليه وسلم"³⁸.

المبحث الرابع: مظاهر التصوف العلمي التجاني

المطلب الأول: المظاهر الدينية

الفرع الأول: الربانية

إنّ مصدر التصوف العلمي التجاني القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، ويهدف إلى ربط المسلم بربه، وتعلّق قلبه به وحده - عز وجل - دون سواه، وفي ذلك يقول الشيخ محمد العيد التجاني: "يقوم التصوف الإسلامي السنيّ الأشعري على الحب والإحسان بتركية النفس من طغواها إلى تقواها، ومن جحودها إلى رضاها، طمعا في ثواب لا يحول، وبر لا يزول. ويعتبر الطريق الصوفي في هذا المقصد بمثابة الإنابة إلى الواحد الأحد الذي لا شريك له - سبحانه تبارك وتعالى - وتقرب إلى الحضرة الإلهية الربّانية، والدّوحة المحمّدية المطهرة تيمنا وتمسكا بأهداب كتاب الله وسنة نبيه؛ فقهًا وفكرًا وسلوكًا"³⁹.

فهو رباني المصدر والمنطلق، كما أنه أيضا ربّاني الغاية والهدف، لقوله تعالى: ﴿ولكن كونوا ربّانيين﴾ (آل عمران، 79). وفي ذلك يقول الشيخ: إنّ "عالم التصوف له القدرة على تحديد نفسه في الزمان والمكان كعلم ربّاني يحاول إصلاح ما أفسدته يد الإنسان بالأزمات التي صنعها بأنانيته، وعلى الإنسان إذا أراد تغيير واقعه عليه أن يغيّر ما بنفسه من أهواء ذاتية ومصالح ظرفية قبل حرصه على تغيير الآخر بالقوة والعنف"⁴⁰.

الفرع الثاني: الوسطية

يقوم التصوف العلمي التجاني على الاعتدال والوسطية التي جاء بنا ديننا الحنيف، ويعمل على التوازن بين؛ العلم والعمل والعبادة، المادة والروح، الفرد والجماعة، وفي ذلك يقول الشيخ محمد العيد التجاني: "نريد من شبابنا أن يتحمّس للعلم والمعرفة ما تعلّق

بالدين والدنيا، ويدرس فلسفة الطريقة ويغوص في فهم مراميها، وما تدعو إليه من برّ وتقوى وأخوة، وكل ما يرتقي بالمريد إلى الخيرية التي أرادها الله لعباده الصالحين، خيرية بعيدة عن الغلو والتطرف تنهج في ذلك الوسطية السمحاء⁴¹.

الفرع الثالث: العالمية

يستمد التصوف العلمي التجاني روحه ومقاصده من الإسلام الذي هو رسالة للعالم كافة وللتناس أجمعين على اختلاف أجناسهم ولغاتهم ومشاربهم، حيث يقول الشيخ محمد العيد التجاني: "أيها الجمع الكريم، إنّ ما جاء به المصطفى صلى الله عليه وسلم يتجاوز عرب قريش في المكان ويتجاوز القرن الهجري الأول في الزمان إلى رسالة كونية شاملة تشترك فيها كلّ البشرية؛ في آمالهم وأحلامهم وما يتوقون إليه مادام الربّ واحداً، والدين واحداً، والأصل واحداً، وإنّ اختلفت الشرائع والاتجاهات"⁴².

الفرع الرابع: الوحدة

ينبني التصوف العلمي التجاني على الوحدة ورص الصّوف، وذلك تطبيقاً لما جاء به ديننا الإسلامي الحنيف الذي دعا إلى الاتحاد ونبتذ الفرقة، وذلك للحفاظ على هويّتنا الإسلامية من التشتت والضياع، ولحماية أبنائنا من التشرذم والانسلاخ، حيث يقول الشيخ محمد العيد التجاني:

"ديننا يدعو إلى التواصل والتلاحم والترابط والإخاء، وهذا ما رسّخته الطريقة التجانيّة الرّاشدة في البناء الاجتماعي حين دعا شيوخها لحسن التعامل وطيب المعاشرة، فهذا جدّي الشيخ سيدي الحاج علي يقول: ليس لي في دار الدنيا عدوّ إلا الشيطان⁴³. ويقول أيضاً: أيّها الأحباب، إنّ عصرنا اليوم عصر تكتلات لا مكان فيه للضعف ولا للانقسام، عليكم بالاتحاد والتآزر والإخاء عملاً بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات، 10). ومقتضى الأخوة أن تتعارفوا وتتواصلوا وتتحابوا وتعتصموا بالله أولاً وآخرًا عملاً بقوله عزّ وجل: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾ (آل عمران، 103).

ويقول أيضا: "إننا نعيش بداية ألفية ثالثة حيث الانفتاح والعولمة وكوكبنا على شساعته يتحوّل تدريجيًا إلى قرية صغيرة لا مكان فيها للتشرذم والانقسام، وهذا ما يوافق أصالتنا وعقيدتنا وتوجيهات ديننا الحنيف: "مثل المؤمنين في توادهم وتعارفهم وترحمهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى"⁴⁴.

المطلب الثاني: المظاهر الاجتماعية

الفرع الأول: الأخلاقية

وهي أبرز ما يدعو إليه التصوف العلمي التجاني امتثالاً لأمر الله تعالى ونبيه الكريم في التخلص بالفضائل وتجنب الرذائل، من أجل تخليق الحياة الاجتماعية بما تحويه من سلوك رشيد للأفراد وعلاقات طيبة بين البشر.

يقول الشيخ محمد العيد التجاني عن التصوف بأنه: "طرح للقيم الإنسانية التي تقوم عليها أرقى رسالة سماوية في التاريخ، ألا وهي؛ الإسلام بما يحمله من قيم التسامح والمودة والمحبة والإحسان والقناعة وقبول الآخر، والصّنع والغفران والإيثار والعطف والحب والمجادلة والتي هي أحسن لأفُق الحوار الجادّ بين الثقافات والحضارات والمعتقدات إلى ما يمكن أن يزرع فصائل الحوار بين الناس، ويوطّد آفاق الأخذ والعطاء لما يخدم الإنسانية بين الأفكار وإن اختلفت مقاصدها، ولما يجعل من كلّ مؤمن صادق رسولٍ حُبٍّ وإحسان"⁴⁵.

الفرع الثاني: الإنسانية

إنّ التصوف العلمي التجاني موجّه للإنسان ويهدف إلى رعاية مصالحه الضرورية وحاجياته الأساسية، وفي ذلك يقول الشيخ محمد العيد التجاني: "وإنّنا نعتقد من منظورنا أنّ التّصوّف السّنيّ أو ثقافة تركية النّفس والإحسان هي الثّقافة التي ينتظر منها الواقع الرّاهن الكثير والكثير، لأنّ الثّقافة التي تَقْبَلُ الآخر وتتواصل معه وإن اختلف معها

في الدين والعقيدة والرأي؛ إذ ليس لها عدو مثل ما قال الإمام التماسيني: ليس لنا عدو إلا الشيطان⁴⁶.

فأهم ما يميز هذا المنهج التجاني هو قبول الآخر وعدم معاداته مهما كان توجهه أو منهجه، باعتبار أن الشيطان هو العدو الوحيد للمسلم، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ (فاطر، 6). فالإسلام ليس دين إرهاب ولكن دين محبة وسلام، وكثيرا ما يردّد الشيخ محمد العيد التجاني قول: "كونوا رسل محبة وسلام لنشر الإسلام والإحسان في كل مكان".

الفرع الثالث: قبول الآخر

نُهج التصوف العلمي التجاني نهجا جديدا "في إشراك التجربة الصوفية في نسقٍ غيري يتفاعل به عالم اليوم، مع الحفاظ على قواعد الخصوصية التي ظل بها التصوف وفيّا لمبادئه، ناجعا في فلسفته الأخلاقية وفي أدواره الاجتماعية، كما عهداها الناس، وكما انتظروها منه ولم يخب لهم رجاء. يتسع مفهوم الغيرية إذن، في التفكير التجاني الجديد، إلى تطويع الوسائط الذاتية في سبيل الإصلاح الكُلّاني، من غير تحجير أن يمتدّ إلى كل من يطلبه وإن اتسع به الزمكانُ إلى الرحاب الفسيحة"⁴⁷.

وهذا "ما نلمسه في الخطى الثابتة الوثيقة التي يخطوها المشروع التجاني في طريقه إلى الحياة، وفي عرض مقترحاته على جُملة عُمرار الفضاء الحيويّ، وإن لم يكونوا صوفية، لأن مراعاة قيم الاشتراك -وهي شعار الرؤية التجانية الحالية - مدعاة إلى الاستفادة من رؤية الشيخ الدكتور، وإلى تقبلها بقبول حسن، وتوظيفها في سياق حضاري لا يحتكره أدياء النهوض التاريخيون"⁴⁸.

وما يؤكّد هذه الوجهة هو توافد الزائرين لزواية تماسين من كل حذب وصوب من غير المنتمين للمدرسة التجانية. وفي ذلك يقول الشيخ: "أيّها الجمع الكريم إنّ الطّريقة التّجانيّة هي طريقة إحسان لوجه الله لا تقوم على رفض الآخر على اختلاف رأه، فهي تعتبر

الصوفي أحمًا في الطريق، والمسلم أحمًا في الدين، والآخر الذي يخالفك في الدين والعقيدة شريكًا في العبودية لله والمجتمع الإنساني الواسع" ⁴⁹.

المطلب الثالث: المظاهر العلمية

الفرع الأول: تكامل العلوم

والمقصود به تكامل علوم الوحي بعلوم العصر؛ العلوم الشرعية والعقلية، وتكامل الجهود من حيث تناول شؤون الفرد والمجتمع والدولة والأمة جمعاء، وفي ذلك يقول الشيخ محمد العيد التجاني: "إن مقتضيات العصر تفرض علينا - خاصة الشباب - التفتح على كافة العلوم وجميع الاختصاصات لإحداث التكامل خدمة للمجتمع الإنساني، وذلك بالإخلاص في أعمالنا والتعاطف فيما بيننا، لتجتمع خيرية كلِّ منّا فتكون دعماً وعوناً وبركة لهذا الوطن والقائمين على أمره".

الفرع الأول: التطور ومواكبة العصر

يؤكد الشيخ محمد العيد التجاني على ضرورة مواكبة العصر ومسايرة مستجداته حتى لا نبقى في المؤخرة، وذلك بتجديد رؤيتنا واستراتيجيتنا وأهدافنا، حيث يقول: "التصوف ثقافة تحجب وتستجيب لمغيّرات الزمان والمكان، ولما تستلزمه المجايلة من أفكار ومتطلبات جديدة كلِّ حينٍ بناءً على قول الشيخ أحمد التجاني: بِسَيْرِ زَمَانِكَ سِرٌّ" ⁵⁰.

وهذا ما جعله يحدّد التصوف التجاني ويخرج به من الروحية البحتة إلى العلمية العملية الروحية من أجل التقدم والتطور عملاً بقول شيخه أحمد التجاني الذي يدعو إلى التقدم ومواكبة سير العصر. وعصر العولمة لا مكان فيه إلا لمن يملك ناصية العلم، وعليه فالتصوف العلمي أصبح ضرورة فرضها العصر.

الخاتمة: أظهرت الدراسة مجموعة من النتائج، أهمها:

✓ إن الشيخ محمد العيد التجاني الخليفة الحالي للطريقة التجانية جمع بين الشيخ المري الذي يتولّى التربية الروحية عند الصوفية، والعالم المتحصّل على درجة الدكتوراه

والأستاذية، والعامل الذي يسعى بكل جدّ وجهد. ما انعكس على رؤيته للتصوف في العصر الحالي وضرورة تحيينه لمواكبة العصر ومستجداته.

✓ قام الشيخ محمد العيد التجاني بتجديد التصوف من خلال الجمع بين الممارسات الروحية التقليدية والأسس العلمية، وذلك بالتحول من الممارسة الروحية البحتة المرتكزة على الأوراد والأذكار وتلاوة القرآن والعبادات إلى الرحابة العلمية العملية الروحية، وهذا ما أطلقنا عليه التصوف العلمي، وهو ما تفرّد به الشيخ عن غيره من الصوفية قديما وحديثا.

✓ عمل الشيخ محمد العيد التجاني على تجديد التصوف انطلاقا من طريقته التجانية؛ إذ لم يخرج عن نهج مؤسسها الشيخ أحمد التجاني، ولا عن نهج خليفته الشيخ الحاج علي التماسيني، بل تابع مسيرتهما تجسيدا لقول الأول: "بسير زمانك سر" أي تابع عصرك وما فيه ولا تركز للتقليد، بل كن مجددا على الدوام. وقول الثاني "عليكم باللويحة والمسيحة والسبيحة حتى تخرج الرويحة".

✓ اعتمد الشيخ على منهجية علمية تركز على أسس ثلاثة؛ علم وعمل وعبادة في إعادة صياغة المفاهيم الصوفية لتتوافق مع متطلبات العصر الحديث مع الحفاظ على الأصالة الروحية للتصوف الإسلامي، ما ساهم في تحويل التصوف من مجرد ممارسات فردية إلى نظام فكري وعلمي.

✓ اعتمد الشيخ في التصوف العلمي على عدة آليات علمية وعملية وعبادية روحية؛ فأما العلمية فارتكز من جهة على العلوم الشرعية؛ القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، ومن جهة أخرى على العلوم العقلية بمختلف تخصصاتها، وإتقان اللغات الأجنبية، وإقامة الملتقيات والندوات العلمية وغيرها.

✓ وأما العملية فاهتم بالعمل وإتقانه خدمة للبلاد والعباد، وبدأ بنفسه حتى يكون قدوة يحتذى به، فعمل في المجال الفلاحي على الاستثمار في غراسة النخيل وزراعة

الحبوب وتربية الأبقار، وغيرها. وفي المجال البيئي قدّم مشروع تحلية المياه للتخلص من مياه الصرف الملوثة ولتوفير مياه السقي. وفي مجال الصناعات التقليدية فتح ورشات خياطة للمرأة لمساعدتها على تحسين ظروفها المعيشية، وغير ذلك.

✓ وأما العبادة الروحية فاعتمد كغيره من شيوخ التجانية خاصة وشيوخ الصوفية عامة على العبادة والذكر والمحبة، وتعمير بيوت الله، والاتصاف بالأخلاق كالتعاون والصدق والإخلاص والعفو والتسامح وغيرها من القيم الإسلامية السامية.

✓ أبرز مظاهر التصوف العلمي التجاني الذي يدعو إليه الشيخ محمد العيد التجاني، هو الربانية، الوسطية، الأخلاقية، العالمية، الإنسانية، التكامل، قبول الآخر، التطور ومواكبة العصر، وهذا ما نحتاجه اليوم كمسلمين لنهضة شاملة.

✓ تميّز التصوف العلمي التجاني للشيخ محمد العيد التجاني بكونه تطبيقيا وليس نظريا؛ إذ أن الشيخ يجسّد ما يقول على أرض الواقع لكون الصوفيّة أرباب أعمال وأحوال لا أرباب أقوال، وهذا ما جعل لمنهجه أثرا إيجابيا في المجتمع.

✓ إن التصوف العلمي التجاني مشروع نهضوي حضاري لإحياء الأمة الإسلامية.

✓ إن المنهج الصوفي العلمي التجاني ذي الأسس الثلاث؛ العلم والعمل والعبادة يمكن أن يكون منهجا للدراسات والبحوث في جميع التخصصات كبديل للمنهج العلمي البحت القائم على الرؤية المادية التي أدّت إلى التسابق نحو الثروة، والتّصارع نحو امتلاك أسلحة الدّمار الشّامل. فغياب العبادة من المنهج العلمي جعلته مضرا للإنسان، لأنّ العبادة هي التي تردّ الإنسان إلى الله ردّا جميلا، وتجعله يتخيّر من أعماله ما ترضي الله تعالى ويتعدّ عمّا تغضبه وتسخطه.

¹ ابن قنفذ القسنطيني، أنس الفقير وعز الحقيّر، تح: محمد الفاسي وأدولف فور، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، المغرب، 1965، ص 63.

² ينظر: أمينة تجاني، الخطاب الصوفي التجديدي عند الشيخ محمد العيد التجاني التماسيني، دار المجدد، سطيف، الجزائر، ط 1، 2023، ص 23.

- ³ المرجع نفسه، ص 29، 30.
- ⁴ الكلاباذي، التعرف لمذهب أهل التصوف، دار الكتب العلمية، بيروت، دط، 2001، ص 21.
- ⁵ القشيري، الرسالة القشيرية، تح: خليل منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 3، 2005، ص 312.
- ⁶ المرجع نفسه، ص 312.
- ⁷ المرجع نفسه، ص 12.
- ⁸ الكلاباذي، التعرف لمذهب أهل التصوف، ص 09.
- ⁹ نقلا عن: عاصم إبراهيم الكيالي، اللطائف الإلهية، ص 20.
- ¹⁰ علي حراز بن العربي براهه المغربي، جواهر المعاني وبلوغ الأمان في فيض سيدي أبي العباس التجاني، تح: محمد الراضي كنون، دار الرشاد، الدار البيضاء، المغرب، ط 1، 2011، ج 2، ص 539، 540.
- ¹¹ الألوسي، روح المعاني، ص 10.
- ¹² الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، الأميرة للطباعة والنشر، بيروت، ط 1، 2010، ص 825.
- ¹³ الشيخ أحمد التجاني: هو أبو العباس أحمد بن محمد بن المختار بن أحمد بن محمد بن سالم، ولد سنة (1150 هـ، 1737 م) بقرية عين ماضي بولاية الأغواط بالجزائر، حفظ القرآن العظيم في السابعة من عمره، وما بلغ الخامسة عشر حتى أتم الدراسة بعين ماضي على يد الأستاذ مبروك بن بوعافية، فقرأ عليه مختصر خليل والرسالة لابن أبي زيد القيرواني ومقدمة ابن رشد وكذلك تحصيل على كل ما يلزمه من علم النحو واللغة. ثم مال إلى طريق الصوفية فأخذ العلم عن كبار علماء فاس كالشيخ الدقاق والشيخ السجلماسي، وعلماء مصر مثل الشيخ محمود الكردى، وعلماء الحجاز كالشيخ أحمد بن عبد الله الهندي في مكة، والشيخ السّمان في المدينة المنورة إلى أن تصدر للتدريس وأسس طريقته، درس في الأبيض سيدي الشيخ والجامع الكبير بتلمسان، وفي جامع الزيتونة بتونس. رحل الشيخ إلى فاس سنة 1798م، وبقي فيها يدرس ويفتي ويرى وبدأت طريقته في الانتشار شيئا فشيئا، إلى أن وافته المنية سنة 1230هـ، 1815م. (ينظر: الحاج علي حراز، جواهر المعاني ص 96 وما بعدها).
- ¹⁴ الحاج علي حراز، جواهر المعاني، ج 2، ص 539، 540.
- ¹⁵ محمد العربي بن السايح، بغية المستفيد، ص 184.
- ¹⁶ أبو بكر زيد الفوتي، مفتاح السعادة الأبدية في مطالب الأحمديّة، مراجعة وتقديم: ياسين بن عبيد، المطبوعات الجميلة، الجزائر، ط 1، 2012، ص 238.
- ¹⁷ المرجع نفسه، ص 238.
- ¹⁸ عبد السلام الغرميني، الصوفي والآخر، دراسات نقدية في الفكر الإسلامي المقارن، نشر المدارس، الدار البيضاء، ط 1، 2000، ص 25.
- ¹⁹ أمينة تجاني، حقيقة الإنسان في الفكر الصوفي التجاني، ضمن كتاب الإنسان المعاصر والتصوف "البعد الروحي في صناعة الإنسان"، إشراف: مشري بن خليفة، منشورات فكرة كوم، ورقلة، ط 1، 2022، ص 153.

²⁰ أمينة تجاني، الخطاب الصوفي التجديدي عند الشيخ محمد العيد التجاني التماسيني، ص 306.

²¹ المرجع نفسه، ص 317.

²² المرجع نفسه، ص 322.

²³ المرجع نفسه، ص 327.

²⁴ المرجع نفسه، ص 307.

²⁵ المرجع نفسه، ص 337.

²⁶ المرجع نفسه، ص 330.

²⁷ المرجع نفسه، ص 330، 331.

²⁸ المرجع نفسه، ص 340.

²⁹ المرجع نفسه، ص 223.

³⁰ المرجع نفسه، ص 340، 341.

³¹ المرجع نفسه، ص 331.

³² المرجع نفسه، ص 337.

³³ الشيخ الحاج علي التماسيني: هو الخليفة الأول للطريقة التجانية بعد مؤسسها الشيخ أحمد التجاني، هو ابن السيد الحاج عيسى بن محمد. وُلد سنة 1180هـ/1766م، حفظ القرآن الكريم، ثم تفقه في الدين، واعتنى به والده تعليماً وتربيتاً وتحذيراً فنشأ على أقوم سبيل، قائماً بأداب الشريعة والسنة المحمدية؛ عُرف منذ صغره بالعفاف والميل إلى الانزواء والتبطل إلى الله والحفاظ على أداء العبادات. سلك الطريقة التجانية على يد شيخها أحمد التجاني وارتبط بها كمريد في شهر ذي الحجة 1204هـ/أوت 1790م، ترقى في الطريقة التجانية حتى أصبح هو خليفته الأعظم بعد رحيل شيخه. أسس زاويته بتماسين سنة 1805، قام بغرس النخيل حتى أنه ترك ما يزيد عن أربع عشرة (14000) نخلة، أوقفها لله تعالى، انتقل إلى الرفيق الأعلى يوم الثلاثاء 22 صفر 1260هـ/12 مارس 1844م. (ينظر: علي بن خليفة، العرف الشذي بالتعريف بالشيخ سيدي الحاج علي).

³⁴ أمينة تجاني، الخطاب التجديدي عند الشيخ محمد العيد التجاني التماسيني، ص 307.

³⁵ الورد المعلوم: يشمل مائة مرة من الاستغفار (أستغفر الله) باب التوبة إلى الله، ومائة من الصلاة على النبي بأي صيغة كانت مع أفضلية صيغة (الفتاح لما أغلق) وشأن الصلاة على النبي امتثال لأمر الله للمؤمنين بالصلاة عليه وفتح باب محبة الله ورسوله للمصلي على خير خلق الله كلهم، ويتوّج المسار إلى حضرة العزيز الجبار بذكر اسم الجلالة (لا إله إلا الله) مائة مرة لتكريس التوحيد لله عز وجل. وهذا الورد يذكره المريد بمفرده سرّاً، وهو عبادة فردية.

³⁶ ورد الوظيفة: وتشمل ذكر ثلاثين مرة (أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم)، وذكر خمسين مرة صلاة الفاتح لما أغلق؛ (اللهم صلّ على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق والخاتم لما سبق ناصر الحق بالحق والهادي إلى صراطك المستقيم وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم)، وذكر مائة مرة (لا إله إلا الله). وذكر اثنتا عشرة مرة صلاة

جوهرة الكمال؛ (اللهم صل وسلم على عين الرحمة الربانية والياقوتة المتحققة الحائطة بمركز الفهوم والمعاني، ونور الأكوان المتكونة الآدمي صاحب الحق الرباني، البرق الأسطع بمزون الأرباح المائلة لكل متعرض من البحور والأواني، ونورك اللامع الذي ملأت به كونك الحائط بأمكنة المكاني، اللهم صل وسلم على عين الحق التي تتجلى منها عروش الحقائق، عين المعارف الأقوم صرطك التام الأسقم، اللهم صل وسلم على طلعة الحق بالحق الكنز الأعظم، إفاضتك منك إليك إحاطة التور المطلسم، صلى الله عليه وعلى آله صلاة تعرفنا بها إياه). وهي عبادة جماعية.

³⁷ ورد الهيللة: ويشمل ذكر اسم الجلالة (لا إله إلا الله) يوم الجمعة بين العصر وغروب الشمس جماعيا من غير عدد حتى آذان صلاة المغرب. ولمن كانت له حاجة يجعل العدد بين الألف وألف وست مائة مرة على حسب الطاقات.

³⁸ أمينة تجاني، الخطاب التجديدي عند الشيخ محمد العيد التجاني التماسيني، ص 313.

³⁹ المرجع نفسه، ص 65.

⁴⁰ المرجع نفسه، ص 67.

⁴¹ المرجع نفسه، ص 306.

⁴² المرجع نفسه، ص 89.

⁴³ المرجع نفسه، ص 309.

⁴⁴ مسلم، الصحيح، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاوضهم، ص 526.

⁴⁵ أمينة تجاني، الخطاب التجديدي عند الشيخ محمد العيد التجاني التماسيني، ص 52.

⁴⁶ المرجع نفسه، ص 63.

⁴⁷ المرجع نفسه، ص 10 (تقديم ياسين بن عبيد).

⁴⁸ المرجع نفسه، ص 12 (تقديم ياسين بن عبيد للكتاب).

⁴⁹ المرجع نفسه، ص 52.

⁵⁰ المرجع نفسه، ص 63.